عدد خاص بأعمال المؤتمر العلمي الثاني

التطور العقلي

وأثره في حركة التجديد في الشعر العباسي

الدكتور عامر خلف طعمة

جامعة تكريت ـ كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية

ألف الشعر العربي على اختلاف مراحله سلسلة مترابطة الحلقات . وقد كوّن الشعر في عصر بني العباس واحدةً من هذه الحلقات المهمة ، التي امتازت بخصائص متفردة كثيرة، لأسباب تتعلق بطبيعة الإطار الحضاري والثقافي الذي عاش في ظله شعراء هذه الحقبة . فبناء الشعر في هذا العصر ، ولاسيما عند أعلامه الكبار ، بناء جديد في الكثير من جوانبه ، فهو مؤلف من عناصر كثيرة ، أهمها : الميل إلى توظيف الألوان الثقافية المختلفة ، لتكثيف معاني النص الشعري ، ودلالاته ، والخروج على المألوف ، وتعمد الاغراب ، الذي يصل إلى حد الغموض في أحيان كثيرة ، ومن عناصره الأخرى أيضاً ، لجوء الشعراء إلى المصطلح العلمي ، والفلسفي ، وتغليب العنصر العقلي على العنصر العاطفي ، ممثلاً في الميل نحو التفكير المنطقي الرصين في الشعر . وليس ثمة شك في أن ما حصل من تحول في الحقبة السابقة للعصر العباسي قد مهد لمثل هذا التطور في الشعر . فقد كان القدماء الذين مثلوا حركة الكلام في العصر الأموي[١] ، قد هيّأوا لتغلغل عناصر من الثقافات الجديدة إلى الشعر العربي ممثلة في اصطناعه الجدل والحجاج العقلي في عرض الآراء والدفاع عنها . وكان الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية هم الذين توسعوا في هذا الجانب ، موغلين في استعمال الحجج العقلية في الشعر على اختلاف ضروبه ، متأثرين في ذلك بالنزعة العقلية والاعتبارات الجدلية ، التي كانت سبيل المعتزلة[٢] ، في الدفاع عن العقيدة الإسلامية أمام الأفكار الوافدة .

وكانت مدينتا البصرة والكوفة ، وهما : من أهم المراكز الحضرية التي نشا وعاش فيها معظم أولئك الشعراء موئلاً لثقافات متنوعة : عربية قديمة ، ممثلة في اللغة ، والشعر ، والخبر ، وإسلامية جديدة في الحديث والفقه ، وأجنبية وافدة : ممثلة في : الثقافات الفارسية والهندية واليونانية . وقد هيأ ذلك لظهور اتجاهات جديدة في الشعر فيهما ، ولاسيما مدينة البصرة التي تميزت من الكوفة بموقعها القريب من البحر، مما سهل اتصالها بمواطن تلك الثقافات . فارس ، والهند ، فقد ظهر فيها ((اتجاه إلى الشعر العقلي ، مثل شعر صالح بن عبد القدوس ، وميل إلى التجديد في فنون الشعر اعتماداً على الصنعة ومراعاة الاتجاهات الحضارية الجديدة في المعاني ، والبديع في الصياغة ، وهو لون من الاعتماد على الحذق ولا

يعتمد على مجرد الطبيعة والخاطر ، ولذلك كان الشعراء الذين مهدوا لظهور البديع ونجحوا فيه من الشعراء المثقفين ثقافة واسعة جامعة))[٣] .

فالشعر ، إذاً ، قد بدأ يتطور ويتحول ولو ببطء ، عن مساره القديم إلى مسارات جديدة فيها الكثير من معالم التحرر والتجديد في تلك البيئة التي مجدت العقل ، وجعلته في المحل الأول ، وإذا عرفنا أن أكثر شعراء هذه المدينة ، من أمثال : بشار بن برد (ت ١٦٨ هـ)[٤] ، وصالح بن عبد القدوس البصري (ت ١٦٧ هـ)[٥] ، وأبي نواس : الحسن بن هاني (ت ١٩٩ هـ)[٦] ، وغيرهم ، ممن تثقفوا ثقافة كلامية وتشربوها ، أدركنا سر تلك الصلة التي كانت تقوم بين أشعارهم ، وبين أساليب المتفلسفة وعلماء الكلام . وهي صلة لم تعد مقتصرة على الأثر المباشر المتمثل في الإتيان بألفاظ أهل الكلام في أشعارهم ، وإنما تعدت ذلك إلى صياغة أشعارهم صياغة منطقية . وهو ما نلمحه في طريقة إخراج المعنى إخراجاً نلمح فيه اثر المنطق في مقدماته ونتائجه . نحو قول عبد الله بن محمد المعروف بابن الخياط مادحاً الخليفة المهدي (ت ١٦٩ هـ)[٧] :

لَمَستُ بِكَفّي كَفَّهُ أَبتَغي الغِنى ... وَلَم أَدرِ أَنَّ الجودَ مِن كَفِّهِ يُعدي

فَلا أَنا مِنهُ ما أَفادَ ذَوُو الغِنى ... أَفَدتُ وَأَعداني فَأَتلَفتُ ما عِندي

ولا شك في أن المعنى في هذين البيتين قديم ، ولكن الإخراج جديد . فتلك طريقة غير معهودة في المدح قبل هذا العصر .

ونحو ذلك أيضاً قول أبي تمام (ت ٢٣١ هـ)[٨] :

وَكُنتُ أَعَزَّ عِزّاً مِن قَنوعٍ ... تَعَوَّضَهُ صَفوحٌ عَن جَهولِ

فَصِرتُ أَذَلَّ مِن مَعنىً دَقيقٍ ... بِهِ فَقرٌ إِلى ذِهنٍ جَليلِ

فقد استعمل الشاعر في نصه هذا من ألفاظ المتكلمين ، الدقيق والجليل ، ولعل الجانب العقلي فيه يبدو أكثر وضوحاً في نقل المحسوس إلى المعقول ، أو (تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال بالفكر)[٩] ، على حد تعبير صاحب الصناعتين . وما من شك في ان هذا النوع من التشبيه ابن عصره ، إذ هو ناتج عن تطور العقل العربي في هذا العصر ، ورقيه إلى مستوى الإدراك الذهني للعلاقات بين الأشياء . ونحو ذلك أيضاً قول بشار بن برد ، وقد استعمل الموازنة والمقارنة استعمالاً أدى إلى التعدد في جوانب الصورة الواحدة[١٠] :

وَمَنَّيتِنا جوداً وَفيكِ تَثاقُلٌ ... وَشَتّانَ أَهلُ الجودِ وَالبُخَلاءُ

عَلى وَجهِ مَعروفِ الكَريمِ بَشاشَةٌ ... وَلَيسَ لِمَعروفِ البَخيلِ بَهاءُ

كَأَنَّ الَّذي يَأتيكَ مِن راحَتَيهِما ... عَروسٌ عَلَيها الدُرُّ وَالنُفَساءُ

وبمرور الزمن كان الشعر يزداد تأثره بالفلسفة ، حتى كنا نجد بعض الشعراء يخضعون في نظمهم لأساليب الكلام الفلسفية ، على نحو ما نجد عند شعراء المعتزلة ، من أمثال : بشر بن المعتمر (ت ٢١٠ هـ) ، الذي قال عنه ابن النديم : ((وكان هذا الرجل شاعراً وأكثر شعره على المسمط والمزدوج ، وقد نقل من الكتب في معاني شتى إلى الشعر ، ما أنا ذاكره : فمن ذلك كتاب التوحيد ، كتاب حدوث الأشياء ، كتاب الرد على المجوس ...))[١١] ، وقال عنه في موضع آخر : ((وكان جماعة من العلماء يفضلونه على أبان اللاحقي ، وله قصيدة نحو ثلثمائة ورقة في حججه))[١٢] . ومن هؤلاء الشعراء ، إبراهيم بن سيار النظام (ت ٢٣١ هـ) الذي قال عنه صاحب الفهرست : ((وذهب في شعره مذهب الكلام الفلسفي))[١٣] . وأورد له بيتين من شعره ، نحا فيهما هذا المنحى ، وهما قوله[١٤] :

رَقَّ فلو بُزَّتَ سَرابيلهُ ... عُلِّقهُ الجوُّ من اللُّطف

يَجرحُه اللحظُ بَتكرارِهِ ... ويَشتكي الإيحاءَ من الطَّرفِّ

فهو يقول : إن من تغزل به ، بلغ من الرقة و(اللطف) ، بحيث انه لو نزعت عنه ثيابه لعلق في الجو ، وان اللحظ إذا تكرر عليه جرحه ، وانه من لطافته يكاد يشكو من إيحاء الطرف إليه ، وهذه مبالغة مفرطة وتجريد بعيد ، لم نألفهما في غزل الشعراء قبل هذا العصر ، إذ كانوا يقفون فيه عند حدود الحس لا يتجاوزونه .

وكان ، بعد أن أُنشئت بغداد ، واستوت مدينة عظيمة ، وحاضرة للخلافة العام ١٤٩هـ[١٥] ، استقطبت كل أوجه النشاط الإنساني ، التجاري منه والصناعي والعلمي منه والأدبي ، كما اجتذبت إليها كل الباحثين عن الشهرة والمجد والمال من علماء وفلاسفة وشعراء .

في هذه المدينة ذات الطابع الجديد والمتنوع تفتحت الأبواب أمام الشعراء للإفادة من كل صنوف الثقافات والتأثر بها وتمثلها ، وكان من نتائج ذلك أن ظهر شعراء تمثل في إنتاجهم الفني اثر الاتصال بن العرب والأمم الأجنبية ممثلة في ثقافاتها ، فكانوا شعراء من طراز جديد ، شعراء تمثل في إنتاجهم سعة الاطلاع وتنوعه ، كما تمثل فيه وبوضوح أكثر من ذي قبل طابع التجديد والابتكار في المعاني والأخيلة . وقد صور لنا أبان بن عبد الحميد اللاحقي جانباً من ثقافة شاعر هذا العصر في قوله[١٦] :

أنا من بغيَةِ الأميرِ وكَنزٌ ... من كُنوزِ الأميرِ ذو أَرباحِ

كاتِبٌ حاسِبٌ خَطيبٌ بَليغٌ ... ناصِحٌ زائِدٌ عَلى النُصّاحِ

شاعِرٌ مُفلِقٌ أَخَفُّ مِنَ الرِّيْـ ... ـشَةِ مِمّا يَكونُ تَحتَ الجَناحِ

ثُـــمَّ أَروي مِـــنِ ابـــنِ هَرمَـــةَ لِلنَّـــا ... سِ بِـــشِعرٍ مُحَبَّـــرِ الإيـــضاحِ
ثُـــمَّ أَروي مِـــنِ اِبـــنِ ســـيرينَ لِلعلْـــ ... ـمِ بِقَـــولٍ مُنَـــوَّرِ الإِفـــصاحِ
ثُـــمَّ أَروي مِـــن اِبـــنِ ســـيرينِ لِلـــشِّعْـ ... ـــرِ وَقَـــولِ النَـــسيبِ وَالأَمـــداحِ
لِـــيَ فـــي النَحـــوِ فِطنَـــةٌ وَنَفـــاذٌ ... لـــي فيـــهِ قِـــلادَةٌ بِوِشـــاحِ

ونحو من ذلك قول ابن الرومي[١٧] :

إن أكـــن غيـــرَ مُحـــسنٍ كـــلَّ مـــا تطْـــ ... ـــلبُ إنـــي لَمُحْـــسنٌ أجـــزاءَ
فمتـــى مـــا أردتَ صـــاحبَ فحـــصٍ ... كنـــتُ ممـــن يُـــشارك الحكمـــاءَ
ومتـــى مـــا أردتَ قـــارض شـــعرٍ ... كنـــتُ ممـــن يُـــساجلُ الـــشعراءَ
ومتـــى مـــا خطبـــتَ منـــي خطيبـــاً ... جـــلَّ خطبـــي ففـــاق بـــي الخُطبـــاءَ
ومتـــى حـــاول الرســـائلَ رُسْـــلي ... بلَّغَتْنـــي بلاغتـــي البُلغـــاءَ

وفي إحدى مدائحه قال واصفاً لها ومنوها بتعاطيه الفلسفة في الشعر[١٨] :

خُـــذها ولا تَبْـــرَم بهـــا إننـــي ... قرَّطتُهـــا الحـــسنَ وشـــنَّفْتُها
بَيِّنَـــةً مـــن منطـــق محكـــمٍ ... فَنَّنْتُهَـــا فيـــك وصـــرَّفْتُها
كـــم نظـــرةٍ فيهـــا تَقَـــصَّيتها ... كـــم وقفـــةٍ فيهـــا توقَّفْتُهـــا
....
ولـــم أدعْ فـــي كـــلّ مـــا زانهـــا ... فلـــسفةً إلا تفلـــسفْتُها

ولم يكن ابن الرومي في قوله هذا مُدّعياً ، فقد ظهر اثر الفلسفة في شعره في أكثر من ناحية ، فمنها جمعه المتناقضات على صعيد واحد ، وتلك خصيصة فلسفية ومن أمثلتها في شعره متغزلاً[١٩] :

النـــار فـــي خديـــه تَتَّقِـــدُ ... والمـــاء فـــي خديـــه يَطَّـــرِدُ
ضـــدان قـــد جُمِعـــا كأنهمـــا ... دمعـــي يـــسيح ولـــوعتي تقِـــدُ

ومنها القدرة على التدليل على صحة الفكرة ونقيضها ، فقد ذم الحقد مرة[٢٠] ، ومدحه أخرى[٢١] ، وتأييد الفكرة ونقيضها خصيصة فلسفية[٢٢] انتقلت إلى العرب عن طريق الفلسفة اليونانية .

ولعل أظهر تلك الآثار وأوضحها تبدو في استقصائه المعنى والوقوف عنده طويلاً وتقليبه على وجوهه ، وقد دعته هذه الخاصة إلى ترك الإيجاز والميل إلى الإطناب ، والى العناية بصياغاته إذ نراه يكثر من الاعتماد على المشتقات[٢٣] ، فكأنه أراد آن يحقق لأسلوبه ميزة فنية عالية إلا أنه لم يبالغ في هذه الناحية إلى الحد الذي يخرجه إلى استعمال المحسنات

البديعية استعمالاً يثقل بها أسلوبه لسبب بسيط ، هو أن هذا الأمر لا يتفق ونهجه في تناول المعاني تناولا يقوم على التفريع والتحليل .

ومما لا شك فيه أن ابن الرومي لم يكن أول من حقق لأسلوبه تلك الميزة الفنية فقد كان مسلم بن الوليد وأبو تمام والبحتري أساتذة في الصياغة الفنية ، إذ حققوا لقصائدهم ضرباً من الإيقاع الصوتي القائم على هندسة فنية راقية في بناء العبارة وصوغها في شكل فقر متوازنة دقيقة تحدث تأثيراتها الموسيقية المتناغمة مع المعاني في المتلقي . ولا شك في أن ذلك وليد تطور في الذوق الحضاري المترف من ناحية ووليد الرقي العقلي الذي تحقق في هذا العصر من ناحية ثانية . ومن أمثلة ذلك قول مسلم بن الوليد في رثاء احدهم[٢٤] :

حُلوُ الشَمائِلِ مَأمونُ الغَوائِلِ مَأ ... مُولُ النَوافِلِ مَحَضٌ زَندُهُ واري
اللَهُ أَلبَسَهُ في عودِ مَغرِسِهِ ... ثِيابَ حَمدٍ نَقِيّاتٍ مِنَ العارِ
دَفّاعُ مُعضِلَةٍ حَمّالُ مُثقِلَةٍ ... دَرّاكُ وِترٍ وَدَفّاعٌ لأَوتارِ
الجودُ شيمَتُهُ كَالبَدرِ سُنَّتُهُ ... يَكادُ أَن يَهتَدي في نورِهِ الساري
....
إِن يُنصِتِ القَومُ لا يَنطِق بِفاحِشَةٍ ... أَو يَنطِقوا فَمُصيبٌ غَيرُ مِهذارِ

ومن ذلك أيضًا قول البحتري في مدح الخليفة المتوكل على الله[٢٥] :

لي حَبيبٌ قَد لَجَّ في الهَجرِ جِدّا ... وَأَعادَ الصُدودَ مِنهُ وَأَبدا
ذو فُنونٍ يُريكَ في كُلِّ يَومٍ ... خَلَفاً مِن جَفائِهِ مُستَجَدّا
يَتَأَبّى مَنعاً وَيُنعِمُ إِسعا ... فاً وَيَدنو وَصلاً وَيَبعُدُ صَدّا
أَغتَدي راضِياً وَقَد بِتُّ غَضبا ... نَ وَأُمسي مَولَى وَأُصبِحُ عَبدا

ومنها في المدح :

خَلَقَ اللَهُ جَعفَراً قَيِّمَ الدُّن ... يا سَدادًا وَقَيِّمَ الدينِ رُشدا
أَكرَمُ الناسُ شيمَةً وَأَتَمُّ النا ... سِ خَلقاً وَأَكثَرُ الناسِ رِفدا

ومن صور تأثر شعراء هذا العصر بالحياة العقلية ، أن نراهم يعبرون من خلال شعرهم عن كثير من الأفكار الفلسفية ، فمنها الفكرة القائلة بان الروح وحدها التي تبقى بعد الموت أما الجسد فيتحلل ، لأنه يمت إلى عالم المادة[٢٦] ، وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرها عند أبي العلاء المعري في قوله[٢٧] :

وَأَوصالَ جِسمٍ لِلتُرابِ مَآلُها ... وَلَم يَدرِ دارٍ أَينَ تَذهَبُ رَوحُها

وقد سبق أبا العلاء المعري في التعبير عن الفكرة نفسها الشاعر أبو الطيب المتنبي في قوله من قصيدة رثى بها أخت سيف الدولة[٢٨] :

تَخالَفَ النـاسُ حَتّـى لا اتِّفـاقَ لَهُـم ... إلاَّ عَلـى شَـجَبٍ وَالخُلـفُ فـي الـشَجَبِ
فَقيـلَ تَخلُـصُ نَفـسُ المَـرءِ سـالِمَةً ... وَقيلَ تَشرَكُ جِـسمَ المَـرءِ فـي العَطَـبِ
وَمَـن تَفَكَّـرَ فـي الـدُنيا وَمُهجَتِـهِ ... أَقامَـهُ الفِكـرُ بَـينَ العَجـزِ وَالتَعَـبِ

وكما هو واضح فإن نزعة الشك التي تطالعنا في بيت أبي العلاء ما هي إلا انعكاس لنزعة الشك في أبيات المتنبي ، واثر من آثار تلمذته الفنية له .

ونزعة الشك هذه قد ظهرت عند العرب نتيجة لاطلاعهم على الفلسفة اليونانية ، ويظهر أنهم عرفوا عن طريق الترجمة مذهب اللا أدرية الذي وضع أصوله بيرون (٣٦٥ ــ ٢٧٥ ق . م) .

وفحوى هذه النزعة انه ((ليس هناك خير وشر بالذات ، وكل ما هناك عرف واصطلاح يسير عليهما الناس ، الشيء الواحد تارة يكون خيراً وتارة شراً وكل شيء زائل الخير والشر على السواء))[٢٩] . وقد كان أبو العلاء أميناً في التعبير عن هذه الفكرة من خلال شعره ، فقال[٣٠] :

وَمـا غَـضَبي إذا جَـرَتِ القَـضايا ... بِتَفـضيلِ اليَمـينِ عَلـى الـشِمالِ
فَـلا يُعجَـب بِـصورَتِهِ جَميـلٌ ... فَـإِنَّ القُـبحَ يُطـوى كَالجَمـالِ
كَـذاكَ الـدَهرُ إِظـلامٌ وَصُـبحٌ ... وَريـحٌ مِـن جَنـوبٍ أَو شِـمالِ

وقد اتخذ الشكاك من السوفسطائين من تباين المذاهب والأخلاق والعادات واختلافها ذريعة قوية للشك[٣١] . وهذا ما نجده بالضبط عند أبي العلاء أيضاً في قوله[٣٢] :

أَجـازَ الـشافِعِيُّ فَعـالَ شَـيءٍ ... وَقـالَ أَبـو حَنيفَـةَ لا يَجـوزُ
فَـضَلَّ الـشيبُ وَالـشُبّانُ مِنّـا ... وَمـا اهتَـدَتِ الفَتـاةُ وَلا العَجـوزُ

وعبر أيضاً من خلال شعره عن الفكرة القديمة القائلة : إن أصل الشرفي الإنسان تكونه من عنصر شرير ، فقال[٣٣] :

عَـداوَةِ الحُمقَـى أَعفـى مِـن صَـداقَتِهِم ... فَاَبعُـد مِـنَ النـاسِ تَـأمَن شِـرَّةَ النـاسِ
وَالـشَرُّ طَبـعٌ وَقَـد بُثَّـت غَريزَتُـهُ ... مَقـسومَةً بَـينَ أَنـواعٍ وَأَجنـاسِ
تَـصَعَّدَ الجَـوهَرُ الـصافي وَخَلَّفَنـا ... فـي الأَرضِ كَثـرَةَ أَوسـاخٍ وَأَدنـاسِ

وبعد كل هذا ، فلا يذهبن بنا الظن بعيداً فنتوهم أن أبا العلاء كان فيلسوفاً أو صاحب نظرية فلسفية صدر عنها في شعره . فكل ما في الأمر أن هذا الرجل كان اطلع على آراء وأفكار فلسفية مختلفة المصادر[٣٤] . فاندفع في تقليدها ونظمها شعراً . ويظهر أن الدافع له في ذلك ، قلقه واضطرابه الروحي ثم حب الظهور . وقد عمق ذلك عنده التدهور السياسي والانحلال الاجتماعي لعصره وعلة العمى عنده . ولذلك نراه مضطرباً متردداً بين الإيمان والإلحاد ، فهو تارة ينكر البعث الذي هو أصل من أصول العقيدة الإسلامية لا يصح الإيمان دونه ، فيقول[٣٥] :

ضَحِكنا وَكانَ الضِحكُ مِنّا سَفاهَةً وَحُقَّ لِسُكّانِ البَسيطَةِ أَن يَبكوا
يُحَطِّمُنا رَيبُ الزَمانِ كَأَنَّنا زُجاجٌ وَلَكِن لا يُعادُ لَهُ سَبكُ

وتارة أخرى نجده مؤمناً بالله ، كما في قوله[٣٦] :

بِحِكمَةِ خالِقي طَيّي وَنَشري وَلَيسَ بِمُعجِزِ الخُلاَّقِ حَشري

ومن الأفكار اليونانية القديمة التي وجدت صداها عند شعراء هذا العصر ، القول : إن النفس روحية المصدر ، وهي لذلك تتوق إلى الروحيات ((وان حياتها الخاصة لا تتحقق تماماً إلا بخلاصها من المادة في عالم روحي مثلها))[٣٧] .

يقول ابن الرومي[٣٨] :

كن مثل نفسك في السموّ إلى العلى لا مثل طينة جسمك الغدّارِ
فالنفس تسمو نحو علو مليكها والجسم نحو السفل هاوٍ هاري

وإذا أخذنا الفلسفة على أنها رؤية للوجود ، وموقف منه يصاغ وفقاً لهذه الرؤية، فمن الطبيعي إذاً أن تكون لكل إنسان فلسفته الخاصة التي يصدر عنها في سلوكه ومناحي نشاطاته الأخرى . من بين أولئك الناس ، الشعراء كانت لهم فلسفاتهم الخاصة بهم ، يصدرون عنها في حياتهم ، وفي فنهم . وسواء أكانت تلك الفلسفات خلاصة تجاربهم في الحياة أم إنها كانت من وحي مطالعاتهم ، فإنها في النهاية تبقى ذات أهمية خاصة ، من خلال تجسدها في أعمالهم .

والحقيقة التي لا يختلف حولها اثنان ؛ أن الشاعر العباسي عاش في عصر انفتح على أنماط من الثقافة متنوعة ، وواسعة ، ولذلك فليس غريباً أن يقع الباحث على مواقف في الفن ، وفي الحياة مؤسسة على رؤى فكرية شاعت في الوسط الثقافي إبان هذا العصر . ومن هذه الفلسفات التي وجدت صداها في شعر العصر ، فلسفة اللذة التي روج لها السفسطائيون في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد في بلاد اليونان . وخلاصة هذه الفلسفة ، أن ((اللذة

والخير شيء واحد ... والخير يطلب من اجل اللذة لا اللذة من اجل الخير ، والعمل الذي يعود علينا باللذة هو عمل خير)) ولذلك فان على الإنسان الناضج أن لا يكبح غرائزه بل يدعها (تبلغ أقصى مداها ... لان ما يميز الحي من غير الحي ، هو هذا الشعور باللذة)[٣٩] .

ويبدو أن شعراء بني العباس قد اطلعوا على هذه الأفكار عن طريق الكتب المترجمة عن اليونان ، فتمثلوها وعبروا عنها ، نحو قول مطيع بن إياس (ت ١٦٩ هـ)[٤٠] :

اِخلَع عَذارَكَ في الهَوى وَاشْرَب مُعَتَّقَةَ الدِّنانِ
وَصِلِ القِيَانَ مُجاهِراً فَالعَيشُ في وَصلِ القِيانِ
لا يَلهِيَنَّكَ غَيرُ ما تَهوى فَإِنَّ العُمرَ فانِي

ويقول أبو الهندي (غالب بن عبد القدوس) (ت ١٨٠ هـ)[٤١] :

إِنَّما العَيشُ فَتاةٌ غادَةٌ وَقُعودي عاكِفاً في بَيتِ حانِ
أَشرَبُ الخمرَ وَأَعصي مَن نَهى عَن طِلابِ الراحِ وَالبِيضِ الحِسانِ
في حَياتي لَذةً أَلهو بِها فَإِذا مِتُّ فَقَد أَودى زَماني

ويقول عبد الله بن المعتز (ت ٢٩٦ هـ)[٤٢] :

فَقُم وَاغْتَنِم وَاشْرَبْ عَلى كُلِّ رَوضَةٍ
وَفي كُلِّ بُستَان وَبَينَ الحَدَائِقِ
فَمَا العُمْرُ إلاّ صِحَّةٌ وشَبِيبَةٌ وَكَأسٌ وَقُرْبٌ مِن حَبِيبٍ مُوَافِقِ
ومَنْ عرفَ الأيامَ لم يغترر بها وبادرَ باللذاتِ قبلَ العوائقِ

وقد وجدت هذه الفلسفة تعبيرها الأقوى عند أبي نواس ، فقد تمثلها في حياته ، فكان سفسطائيًّا في طلبه اللذة ، وانغماسه بها ، وفي الإعلان عنها ، والدعوة إليها من خلال شعره ، نحو قوله[٤٣] :

لَستُ بِالتَّارِكِ لَذّا تِ النَّدامى لِلصَّلاحِ
قُل لِمَن يَبغي صَلاحي بِعتُ رُشدي بِطَلاحي
ظَفِرَت كَفَّ أَريبٍ باعَ بِرّاً بِجُناحِ
أَطيَبُ اللَذّاتِ ما كا نَ جِهاراً بِافتِضاحِ

ويمكننا أن نلمح في نهج أبي تمام وطريقته الجديدة ، بحدود العصر الذي عاش فيه ، انعكاساً لفلسفة التغير التي قال بها الفيلسوف اليوناني هرقليطس . ومؤداها : أن صراع الأضداد هو الشيء الوحيد الدائم الذي لا يفسد ، وان القانون الذي يحكم هذا الصراع هو

التغير ، وعدم الثبات ، والتجدد المستمر ، ولذلك فان كل شيء في هذا الوجود هو في طريق التحول إلى ضده[٤٤] .

ولأن الفن نشاط إنساني ، فانه يخضع للقانون نفسه . ومن ثم ؛ فانه لا قواعد ثابتة فيه ، تبقى إلى الأبد . وهو ما يسوغ الخروج عليها . وسواء أكان أبو تمام مطلعاً على هذه الأفكار أم لم يكن ، فقد عبر عنها فنياً من خلال بناء صوره ومعانيه ، ومن خلال بناء استعاراته الجديدة غير المألوفة . وفي واقع الأمر ؛ فإنها جميعها قد صدرت عن النبع نفسه الذي صدرت عنه سالفاتها على وفق قانون التغير ، فالقديم هو جديد في عصره وجدته تكمن في غرابته ، والجديد دائماً وأبداً يولد في رحم القديم ، وهو يوافقه ويخالفه في آن واحد . وبناء على ذلك كله فان الكشف عن المعاني الجديدة وتوليدها ، يجد مسوغه في الطبيعة الجدلية التي تحكم منطق الأشياء[٤٥] . ولذلك فإن أبا تمام يستغل كل ما يمكن إن توفره له الوسائل البلاغية ولاسيما الطباق والمقابلة من إمكانات في هذا الاتجاه . ولنقرأ قوله في مدح احمد بن أبي دواد[٤٦] :

فَقَد بَثَثتُم غَرسَ المَوَدَّةِ وَالشَحْ ... نَاءِ في قَلبِ كُلِّ قارٍ وَبادِ
أَبغَضوا عِزَّكُم وَوَدّوا نِداكُم ... فَقَرَوكُم مِن بِغضَةٍ وَوِدادِ

فقد بنى الشاعر الصورة في هذين البيتين على الطباق ، ليعبر من خلال تضاد عناصرها عن معناه بصورة أكثر وضوحاً . ولم يكن أبو تمام بدعاً بين شعراء دولة بني العباس في هذه الناحية . إلا أنه تميز من بينهم في أنه أولاها من اهتمامه وعنايته الشيء الكثير .

وخلاصة القول ؛ إن العصر العباسي بكل ما انطوى عليه من مؤثرات ثقافية وحضارية ؛ قد ترك بصماته على معاني الشعراء وأخيلتهم فطبعها بطابع الجدة والابتكار .

هوامش البحث وقائمة المصادر والمراجع

(١) علم الكلام ، كما عرفه ابن خلدون ، يتضمن الحجاج أو الجدال عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية . وتسميته بعلم الكلام تعود إلى أحد الأسباب الآتية :

أ . أن هذا الفن اتخذ اسمه من الكلام الإسلامي ، لأن علماء هذا الفن كانوا يتجادلون على أساس من المنطق ويستعملون الأقيسة والأدلة في جدالهم . وكل ذلك راجع إلى الكلام الإنساني .

ب . اتخذ هذا الفن اسمه من الموضوعات التي عالجها ، إن أبرز القضايا التي عالجها هذا العلم كانت قضية خلق القرآن . فقد دار الخلاف في هذه القضية في السؤال الآتي : أكلام الله هو (القرآن) أم لا ؟ ينظر : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، و د . عمر فروخ ، دار العلم للملايين ــ بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ ، ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) المعتزلة . من الفرق الإسلامية التي تقلبت بها الأحوال صعوداً وهبوطاً في العصر العباسي . وكان عمرو بن عبيد وهو من أوائل زعماء هذه الحركة تربطه علاقات وثيقة بالمنصور . فقد كان من الأثيرين عنده ومن أصحاب الدالة عليه وفي زمن هارون الرشيد اتسعت الحركة العلمية كثيراً فاتسعت حركة الاعتزال . ولكن ما لبث أن تقلص نفوذهم في زمن الأمين . حتى إذا جاء المأمون اندفع في تيار الاعتزال ووجه معظم اهتمامه إلى القرآن والقول بخلقه وهي مقولة أساسية في فكر هذه الطائفة . (ينظر : تاريخ الفكر العربي ، عمر فروخ ، ص ١٨٩ وما بعدها) .

(٣) تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري : د . محمد زغلول سلام ، الناشر : دار المعارف بمصر ١٩٦٤ م ، ١ / ٨٤ .

(٤) ينظر : الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، طبعة دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٩٩٩م ، ١ / ١٣٨ .

(٥) قال الزركلي في كتاب الأعلام ٣ / ٢٧٧ : ((صالح بن عبد القدوس الأزدي الجذامي ، مولاهم أبو الفضل ، شاعر حكيم ، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة ، له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات وشعره كله أمثال وحكم وآداب . واتهم عند المهدي العباسي بالزندقة فقتله ببغداد))

(٦) ينظر : أخبار أبي نواس لأبي هنان (ملحق الأغاني) تحقيق : علي مهنا ، دار الفكر ــ بيروت ، (د . ت) ، ٢٥ / ٢٠٢ .

(٧) الأغاني ، لأبي الفرج الأصفهاني ، دار الفكر ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ٢ / ٦ ، وأخبار أبي تمام ، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، تحقيق : د . محمد عبده عزام وخليل محمود عسكر ، دار الأفاق الجديدة ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ١٥٩ . ، والبيتان ينسبان إلى بشار بن برد (ينظر تخريجهما في ديوانه شرح محمد الطاهر ابن عاشور ، الشركة التونسية للتوزيع ــ الجزائر ، ١٩٧٦م ، ٤ / ٤٤ .

(٨) ديوانه (شرح الصولي) ، تحقيق : د . خلف رشيد نعمان ، دار الرشيد للنشر ــ بغداد ، ١٩٨٢م ، ٣ / ١٩٠ .

(٩) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) ، لأبي هلال العسكري ، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي البجاوي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (د . ت) ، ص ٢٤٨ .

(١٠) ديوانه ١ / ١٢٦ .

(١١) الفهرست ، لأبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بابن النديم ، تحقيق : رضا تجدد ، تاريخ المقدمة ١٩٧١ م ، ص ١٨٤ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٢٠٥ .

(١٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ، وجاء في طبقات الشعراء لعبد الله بن المعتز ، تحقيق : عبد الستار احمد فراج ، طبعة دار المعارف بمصر ، ص ٢٧١ ــ ٢٧٢ . في معرض الحديث عنه (حدثني ابن الكوفي ، قال : كان مذهب إبراهيم النظام في أول أمره الشعر وانتقل إلى الكلام ... وشعره قليل ، وكان يستقي الشعر من الكلام والجدل) .

(١٤) الفهرست ، ص ٢٠٦ .

(١٥) ينظر في قصة بناء بغداد كتاب : تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر احمد بن علي الخطيب البغدادي ، دار الفكر للطباعة بيروت (د . ت) ١ / ٦٦ وما بعدها .

(١٦) أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق ، لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي ، عني بنشره : ج . هيورث . دن . دار المسيرة ، بيروت ، مــطابع يــوسف بيضون ، ط ٢ ، ١٩٨٢م ، ص ٤ ــ ٥ .

(١٧) ديوانه ، تحقيق : د . حسين نصار ، طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٤م ، ١/ ٨١ .

(١٨) المصدر نفسه ١ / ٣٦٣ .

(١٩) المصدر نفسه ٢ / ٦٧٣ .

(٢٠) ينظر : المصدر نفسه ١ / ٣٩٥ .

(٢١) ديوانه (اختيار كامل كيلاني) مطبعة التوفيق ، القاهرة ، ١٩٢٤ م ، ص ١٦٣ .

(٢٢) ينظر : تاريخ الفلسفة اليونانية ، يوسف كرم ، الناشر : لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٦م ، ص ٥٨ .

(٢٣) يجدر بنا أن ننبه إلى أن عدداً من الباحثين سبقنا في الإشارة إلى هذه الناحية كالأستاذ عباس محمود العقاد (رحمه الله) في كتابه (ابن الرومي حياته من شعره) ، طبعة بيروت السابعة ، ١٩٦٨م ، ص ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، والدكتور محمد محمود الدش في كتابه (أبو العتاهية حياته وشعره) ، الناشر : دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ٣٦٤ .

(٢٤) شرح ديوان صريع الغواني (مسلم بن الوليد) ، تحقيق : د . سامي الدهان ، طبعة دار المعارف بمصر ، (د . ت) ، ص ٢٢٨ ــ ٢٢٩ .

(٢٥) ديوانه ، تحقيق : حسن كامل الصيرفي ، طبعة دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣م ، ٢ / ٧١١ ــ ٧١٢ .

(٢٦) الغنوصية : د . حسام محيي الدين الآلوسي ، مجلة كلية الشريعة ، مطبعة الحكومة ، بغداد ، ١٩٦٦ ، العدد (٢) ، ص ٢٨٠ .

(٢٧) اللزوميات (لزوم ما لا يلزم) اختيار عمر أبو النصر ، الناشر : دار الجيل ــ بيروت ، ١٩٦٩ م ، ص ١٠٩ ، وينظر : ص ١١١ ، ١٩٤ .

(٢٨) ديوانه ، شرح اليازجي ، دار صادر ــ بيروت ، (د . ت) ، ٢ / ٢٨٦ .

(٢٩) تاريخ الفلسفة اليونانية (كرم) ، ص ٣١٢ .

(٣٠) اللزوميات (اختيار عمر أبو النصر) ، ص ١٩٥ ، وينظر : ص ١٧٣ .

(٣١) ينظر : تاريخ الفلسفة اليونانية (كرم) ، ص ٣١١ .

(٣٢) اللزوميات : (اختيار عمر أبو النصر) ، ص ١٦٠ .

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، وينظر : ص ٩١ .

(٣٤) يقول القفطي (ولما كبر أبو العلاء ووصل إلى سن الطلب اخذ العربية من قوم من بلده ... وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام وكانت بها خزائن كتب وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ونزل دير الفاروس ، وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة ، وحصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به الانحلال وضاق عطفه عن كتمان ما تجمله من ذلك حتى فاه به في أول عمره وأودعه إشعاراً له) . تعريف القدماء بابي العلاء . (طبعة دار الكتب المصرية) ، ص ٣٠ .

(٣٥) اللزوميات : (اختيار عمر أبو النصر) ، ص ١٨٤ ، وينظر : ص ١٣٥ ، ٢١٢ .

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٥١ ، وينظر : ص ٢٠٦ .

(٣٧) تاريخ الفلسفة اليونانية (كرم) ، ص ١١٣ ، وينظر : ص ٦٨ .

(٣٨) ديوانه (اختيار كامل كيلاني) ، ص ١٦٩ ، وقد عبر أبو العلاء المعري أيضاً عن هذه الفكرة في شعر . ينظر : اللزوميات (اختيار عمر أبو النصر) ، ص ٦٩ ، ١٢٠ .

(٣٩) الفكر اليوناني (٢) أفلاطون ، د . حسين حرب ، الناشر : دار الفارابي ــ بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٠م ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٤٠) الديارات ، لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي ، تحقيق : كوركيس عواد ، الناشر : دار الرائد العربي ــ بيروت ، ط ٣ ، ١٩٨٦م ، ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ .

(٤١) ديوانه ، صنعة عبد الله الجبوري ، مطبعة النعمان ، ط ١ ، النجف ، ١٩٧٠م ، ص ٥٣ ــ ٥٤ .

(٤٢) ديوانه ، تحقيق ودراسة : د . يونس احمد السامرائي ، دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٩٨٧ م ، ٣ / ٣٣٤ .

(٤٣) ديوانه ، تحقيق : احمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي ــ بيروت ، (د . ت) ، ص ٦٨٥ ، وينظر : ص ٢٨ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١١٢ ، ١٣٠، ٢١١ .

(٤٤) ينظر : الفكر اليوناني (١) قبل أفلاطون ، ود. حسين حرب ، دار الفارابي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٧٩ م ، ص ٥٣ ، وتاريخ الفكر الفلسفي (الفلسفة اليونانية) د . محمد علي أبو ريان ، مطبعة الشاعر ــ مصر ، ط ٤ ، ١٩٧٢م ، ص ٦٦ ، ٧١ ، ٧٢ .

(٤٥) جدلية أبي تمام ، عبد الكريم اليافي ، دار الحرية للطباعة ــ بغداد ، ١٩٨٠م ، ص ٦٤ .

(٤٦) ديوانه ، ١ / ٣٧٩ .